القدس:
خمسة عشر قرناً من السلام والتسامح

عزيز العصا

مقدِّمة

في هـذه الظـروف العصيبة التي تمـرُّ بها قضيّتنا، من حيث حجم المؤامرة التي تسـتهدف حقوقنـا التاريخيـة، ووجودنـا على أرضنـا، وحقَّنا في العيـش الكريم عـلى أرض الآباء والأجداد، فلا بدَّ من التوقف عند الثوابت التي تشكِّل عناصر هُويّتنا الوطنيّة والقوميّة والدينيّـة. وفي هـذا الوقـت، إذ يحتدم الصراع عـلى القدس، وفي القدس؛ بين أسـوارها وخارجهـا، مـع احتلالٍ يسـعى إلى "مَحْـو" عروبة المدينـة وتهويدها؛ أي إنـكار ملامحها العربية بِبُعْدَيْها الإسـلاميّ والمسـيحيّ، أصبـح من الضرورة بمكان العـودة إلى الجذور التي اسـتمدَّت منها القدس تركيبتها الديمغرافية والحضارية التي يتمُّ الاعتداء السـافر عليها منذ نحو مائة عام.

سوف نتطرَّق في هذه المقالة إلى التطوّر المتزامن للوجود الإسلامي والمسيحي في القدس منذ الفتح العُمَريّ، كشهادة دامغة في وجه الاعتداءات المبرمجة التي تسعى إلى جعل هذه المدينة المقدسة عاصمة للدولة المحتلّة.

المسيحيّة والإسلام: ارتباط عقديّ

جاءت العلاقة بين الديانتيْن الإسلاميّة والمسيحيّة على أرضيّة اعتراف كلٍّ منها بالأخرى، بسهولة ويُسْر؛ فقد ورد أنَّ السيِّد المسيح وُعِدَ برسول قادم، وأن ما سيقوله هذا الرسول سيقلب الموازين المتعارف عليها، وهو الذي سيقول الحقيقة الكاملة، ويخزي كثيراً من الكهنة والكَتَبَة والمضلّلين، وأنه سيخبر الناس عن كل شيء؛ أيْ عن الإيمان الحقِّ ويدلّهم على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وتنبّأ النبيّ زكريا بن برخيا بمجيء الخليفة عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه)(1).

كما أنَّ النبيّ أشعياء، الذي عاش ومات في فِلَسْطينَ، وفي الإصحاحات: التاسع والعشرين، والأربعين والخامس والأربعين والتاسع والأربعين والخمسين والحادي والخمسين، وفي نصوص واسعة، يقول واصفاً الرسول القادم، والذي لا نبيّ بعده: إنَّ إحدى علامات مجيئه هو "صوت صارخ في البريّة"؛ ويقصد بذلك صوت الأذان الذي يتردَّد خمس مرات يوميّاً، كما أنه يلمح إلى خصائص "محمد" (صلى الله عليه وسلم)، حتّى إنَّه ذكر اسمه كنبيّ لجميع أمم الأرض، إلّا أنَّ كتبة التوراة حرَّفوا النَّصَّ ليثبتوا اسم "قورش الفارسيّ"(2).

وعندما كان "محمد" صلَّى الله عليه وسلم طفلاً (مولود سنة 570م) التفت له الراهب بحيرى، الذي قال لأبي طالب: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت، ليبلغنه شرّاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم(3).

وفي البحث المعمّق، يتبيّن تميز علاقة المسلمين بالنصارى (أتباع المسيح عليه السلام)، فللمسيح في القرآن الكريم مقامٌ عالٍ، وأشاد القرآن الكريم بشهداء النصارى في العهود القديمة، من الذين كانوا على الدين الحقّ كشهداء الأخدود(4)، كما أثنى القرآن على

(1) أبو عامر، علاء (2015). في البدء كان إيل -في العلاقة الجدلية بين الإسلام والمسيحية واليهودية. ص: 45-52.

(2) أبو عامر (2015). ص: 37-44.

(3) خلف، عبد الباقي (2017). الحوار في السّيرة النبويّة: صور ومشاهد حية من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم". دار الفكر. دمشق. سوريا. ص: 52-53.

(4) انظر سورة البروج: 4-10.

القسّيسين والرهبان الذين حين سمعوا القرآن الكريم آمنوا به، قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة: 82)، والآية واردة في النجاشي وحاشيته، الذي كان خروج صحابة الرسول، صلَّى الله عليه وسلم، إليه أول هجرة في الإسلام[1].

الوجود المسيحيّ في القدس:

وُجد المسيحيون في القدس منذ نعومة أظفار المسيح نفسه، عليه السلام، وتشهد طريق الآلام في القدس على هذا الوجود، واستمرَّ أتباعه، عليه السلام، في هذه المدينة المقدّسة، إلّا أنهم اضطروا إلى مغادرتها خوفاً من الضرر الناجم عن الصراع الروماني اليهودي الذي انتهى بزحف القائد الروماني على المدينة سنة 70م ودمّرها حتّى الأساسات، لتبقى خربة لمدَّة 60 عاماً حتّى قرّر الإمبراطور هدريان، عام 130م، بناء مدينة على أنقاضها وسمّاها "إيلياء". فعاد المسيحيون إلى إيلياء، وتوطّنوا فيها[2]

في أوائل القرن الرابع الميلادي، وفي عهد الإمبراطور قسطنطين، تحولت الإمبراطورية الرومانية من الوثنية إلى المسيحية، وعلى أثر ذلك قدمت الملكة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين إلى القدس وبحثت عن الصليب وعن القبر الذي دُفن فيه عليه السلام، وبنت **كنيسة القيامة**، كما بنت كنيسة بيت لحم، والكنيسة بطور زيتا بمصعد سيدنا عيسى عليه السلام، وكنيسة الجسمانيّة. ثمَّ توالى بناء الكنائس والأديرة في القدس، ويقدر الحنبلي عددها قبل الفتح الإسلامي بنحو عشرين كنيسة وديراً[3].

لقد تعرَّض المسيحيون في القدس إلى هجمات ومذابح، منها: في زمن جستنيان (تولى الحكم سنة 527م وتوفي سنة 567م) ثار السمرة وذبحوا المسيحيين في أحيائهم، ولكن ثورتهم

(1) العصا، عزيز (2019). نفحات من رحاب الأقصى. الرقميّة للنشر والتوزيع. رام الله. فلسطين. ص: 136.

(2) أبو جابر، رؤوف (2010). الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان. ط2. ص: 7.

(3) الحنبلي، مجير الدين (1973). الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. مكتبة المحتسب. عمان. الأردن. ج2. ص: 51، 170.

أطفئت وعوقبوا، فاستتب الأمن. وفي سنة 614م، وبتحريض وتوجيه من اليهود غزا الفرس مدينة القدس فهدموا كنيسة القيامة، كما هدموا معظم الكنائس والأديرة التي كانت فيها، وأمر كسرى أنْ يؤخذ رخام هذه الكنائس ويُنقل إلى بلاده[1].

في أجواء ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وبدء انتشاره خارجها، كانت الدولتان العظيمتان في ذلك العصر الروم والفرس تتصارعان على القدس؛ وفي سنة (625م) انتصر هرقل (ملك الروم) على كسرى (ملك الفرس) فراحت أعلام بيزنظة تخفق على فِلَسْطين، ففرح المسلمون بانتصار المسيحيين على المجوس[2]. وتنبّأ القرآن الكريم بذلك صادقاً في السورة التي سُمِّيت بالروم، حيث قال الله تعالى: "غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ" (الروم: 2 – 3). وبعد أنْ تنصَّرَ مجموعة مثقَّفة من العرب في الجزيرة العربية وفي تخوم الشام، وجد أصداء فكريّة وأتباعاً، وأنَّ قِلَّةً للمسيحية في مكّة، بجانب الحنيفية والوثنية والصابئة.

وبعد عقد من الزمن، عام (15هـ/ 638م)، جاء العرب المسلمون إلى مدينة القدس وهي عامرة بالمسيحية سُكّاناً ومقدَّسات وأسواقاً وعُمراناً. ومن أبهج الصور التي يسجّلها التاريخ، خروج مجموعة من السُّكّان مُرَحِّبين بالعرب المسلمين وهم يرقصون واستقبلوا المسلمين بالورود، كما أفادت كتب الفتوح. ومن الصور التي يعتزُّ بها من التصالح بين المتحابين من المسلمين وسُكّان "إيلياء" أنْ أبَى أهلها الخروج والتّسليم إلا للخليفة عمر، قائلين للقائد المسلم أبي عبيدة: **"أرسل إلى خليفتكم، فيكون هو الذي يُعطينا العهد ويكتب لنا الأمان"**، فحضر الخليفة عمرُ بن الخطاب سنة (15هـ/ 638م)[3]، وكتبَ لأهل إيلياء صُلحاً وعهداً يطلق عليه **"العهدة العمرية"**.

تميّزَت الفتوح الإسلامية عن غيرها من قوى الاحتلال، بميزة إنسانية قَلَّما نجدها في ذاك الزمن، والمقصود بذلك هو سياسة المسلمين في الفتوح، والتي تجلَّت في خيارات ثلاثة: إما الإسلام، وإمّا الصلح والجزية، وإمّا الحرب. وفي هذا اختلاف بين من سبق من القوى التي

(1) العارف، عارف (1999). المفصل في تاريخ القدس. مكتبة الأندلس. القدس. ص: 76-77.

(2) العارف (1999). ص: 77.

(3) الحنبلي (1973). ج1. ص: 248-250.

كانت تقدّم فقط خيار الحرب والأسر والتدمير، ولذا حُقَّ للتوسُّع العربي الإسلامي أنْ يُسمَّى فتحاً وليس احتلالاً[1].

كما شَكَّلَ العهدُ وصكوك الصلح، وخصوصاً العهدةَ العمريّة، مِفْصَلاً مُهمًّا في تاريخ الدّولة الإسلاميّة، كما أنّها رسمت ملامح العلاقة الإسلاميّة المسيحيّة، القائمة على الأمن والأمان الذي أعطاه المسلمون الفاتحون للمسيحيّين من سُكّان البلاد الأصليين. وأصبحت هذه الوثيقة مَحلَّ الرّعاية والعناية والاهتمام من جانب المسلمين، وحكّامهم كافّةً، وموضع التّنفيذ والتّطبيق منهم، ولم يعرف يوماً إساءة تطبيق أيّ بند من بنودها. فقد ضَمِنَتْ حرّية العقيدة للنّاس، امتثالاً لأمر الله الذي لا يجيز أن يُكره أحد على تغيير دينه ومعتقده. وأثبت المسلمون أنّهم أحرص النّاس على شعائر الآخرين التّعبّدِيّة، وقد كَفَلُوا لهم حرّية العبادة والوصول إلى أماكنها[2].

وأما على مستوى العمران الإسلامي في القدس فلم يكن -بأيِّ حال- على حساب الآخرين، وقد بُدِئَ به على يد فاتح المدينة الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه؛ الذي بنى للمسلمين مُصلّى في الساحة الجنوبية للمسجد الأقصى، حيث لا عُمرانَ، ولا منشآت. فلم يشهد أنْ هَدَمَ المسلمون مبنًى كان قائماً في القدس، ولم يبنوا في مِنطقة كانت مشغولةً من قِبَلِ السكّان، بل توجَّهوا إلى منطقة الإسراء والمعراج، وإلى المنطقة التي كانت مهملة تماماً لمدَّة خمسة قرون ونصف[3].

الأمويُّون: يعمرون المكان ويشيدون العمران

لقد نالت بيتَ المَقْدِسِ اهتماماً خاصّاً من معاويةَ، وباقي الخلفاء الأمويين لأسباب دينية وسياسية؛ فتلقَّى عددٌ منهم البيعة في بيت المَقْدِسِ كمعاويةَ وعبدِ الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك -الذي همَّ لاتِّخاذ القدس عاصمةً له، وكان وُلاة فِلَسْطينَ من الأمراء

(1) د. يوسف النتشة مدير دائرة السياحة والآثار في دائرة الأوقاف العامة ومدرس بجامعة القدس. مقابلة بتاريخ: 05/ 02/ 2020.

(2) فارس، عزت محمود (2010). قراءة في العهدة العمرية. مجلة جامعة دمشق – المجلد (26). العدد الأول. ص: 205–225.

(3) د. يوسف النتشة. مقابلة بتاريخ: 05/ 02/ 2020.

الأمويـين[1]. كما أنَّ مدينة بيت المَقدِس ظلّت عاصمةً لِفِلَسْـطِيَن منـذ الفتح العُمريّ وحتَّى أواخر العهد الأمويّ[2]. ومن أعظم ما شادَ الأمويون في القدس:

أوّلاً: لمّا جاء زمن معاوية (41هـ/ 661م – 60هـ/ 680م) كان المسجد الذي بناه عمرُ بن الخطاب قد بدأ بالاهتراء، وأصابه الخَلَلُ بسـبب قِدَمِ أخشـابه، فقام معاوية بإعادة بنائه على هيئة أوسع، فبناه من الحجارة، وصار في زمانه يتَّسع لـ(3,000) مصلٍّ، وكان هو البناء الوحيد الموجود في ساحات المسجد الأقصى المبارك[3].

ثانياً: عندما تسلّم عبد الملك بن مروان الحُكْمَ (65هـ/ 684م – 86هـ/ 704م) الحكم، الـذي عُرِفَ عنه غِيرَتُه الشـديدة على العروبة والإسـلام، حقَّق عـدداً من الإنجازات العمرانيّة المُهمّة في بيت المقدس، والتي تتلخّص فيما يأتي:

1) **قبّة على الصخرة المشرَّفة،** أَمَرَ أنْ يُفرَغَ المال عليها إفراغاً دون أنْ يُنفق إنفاقاً[4].

2) إعـمار الجامـع الأقصى "المسـجد القبليّ"، فتـمَّ البناء والعمارة من شرقيّ **المسـجد** إلى غَرْبيِّهِ من السُّـور الـذي عند المكان المعروف الآن بجامـع المغاربة[5]، فكان ذلك المسجد بحجم (15) رواقاً؛ أيْ إنَّ حجمه ضِعْفَيْ حجمِ المسجد الحالي[6].

3) **القصـور الأموية:** ذلك البناء الضخم، الذي تربض آثاره جنوب غرب المسـجد الأقـصى المبارك، وكان يقوم على مسـاحة تبلـغ نحو (15) دونماً، شَـكَّلَتْ ما يُعرف

(1) الدوري، عبد العزيز (1992). القدس في الفترة الإسلامية الأولى (من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر). في "القدس في التاريخ. تحرير كامل جميل العسـلي. الجامعة الأردنيّة. عمان. الأردن". ص: 129–157.

(2) عثامنة، خليل (2000). القدس عاصمة فلسطين في صدر الإسلام. مجلة الكرمل. العدد (65). ص: 172–198.

(3) معـروف، عبـد الله (2018). المدخل إلى دراسـات بيت المقدس. مؤسسـة الفرسـان للنـشر والتوزيع. عمّان. الأردن. ص: 99.

(4) الحنبلي (1973). ج1. ص: 272–273.

(5) الحنبلي، مجير الدين (1973). الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. مكتبة المحتسب. عمان. الأردن. ج1. ص: 273.

(6) معروف (2018). ص: 104–105.

بتاريخ صدر الإسلام بدار الإمارة، عند الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الشريف ما بين المسجد الأقصى وعين سلوان[1].

مسلمون ومسيحيون يعمرون المكان

لقد التفتَ الأمويون، على مستوى الخلفاء والحُكّام، إلى المقدَّسات المسيحية من كنائسَ وأديرةٍ، بالتعزيز والاحترام، والزيارات الدائمة والمستمرَّة، ومنحهم حرّيةَ العبادة وإعمار أماكنهم الدّينيّة، وَفْقَ شواهدَ متعدّدة، أهمُّها: توصيات الخليفة أبي بكر الصِّدِّيق الإنسانية لقادة الفتح وجنودِهِ، في ضَرورة الحفاظ على المباني والبيئة، واحترام رجال الدِّين وكبار السِّنِّ والأطفال والنساء، وأوامر الخليفة الأمويّ عمر بن عبد العزيز (717م -720م) بمنع تدمير أيَّة كنيسة من تلك التي كانت قائمة عند الفتح الإسلاميّ[2]؛ الأمرُ الذي يعني أنَّ التخطيط الإسلامي للمدينة لم يَمسَّ الأماكن الدينية القائمة في حينه، بل حافظوا عليها وَحَمُوها من أيِّ اعتداء خارجيّ.

استمرَّ هذا الحال من الأمن والأمان بشأن المسيحيين، وممتلكاتهم، إبّان الحِقَبِ العباسيّة، والأيّوبيّة والمملوكية والعثمانيّة، واستمرّوا في بناء كنائسهم وأديرتهم ودُورِ العبادة بأشكالها المختلفة، وصولاً إلى ما هو عليه الأمر الآن. وإنْ شابَ الأمرَ شائبةٌ زمن الفاطميِّين، بأوامرَ من الخليفة الفاطميِّ الحاكمِ الذي أمرَ بهدم كنيسة القيامة، ومِنْ ثمَّ سمحَ بإعادة بنائها، وقد تمَّ ذلك زمن ابنه الظّاهرِ لإعزاز دِين الله. والواقع أنَّ هذا الأمرَ أيضاً انطبق على المجتمع الإسلاميّ الذي عانى كثيراً من تصرُّفات الخليفة الحاكم وأوامرِه، الذي وُصِفَ بالاضطراب أو الغرابة من قِبَلِ بعض المؤرِّخين[3].

لا شكَّ في أنَّ هذه المدّةَ الطويلةَ من الزمن، والعدد الهائل من الحكّام، من مختلف المستويات

---

(1) منظمة التحرير الفلسطينية: دائرة شؤون القدس. انظر الرابط التالي (شوهد في 23/ 05/ 2019):
http://alqudsgateway.ps /wp /?p=3760
مجلة معاً الإلكترونية (2013). العدد (53). انظر الرابط التالي (شوهد في 23/ 05/ 2019):
http://www.maan-ctr.org /magazine /Archive /Issue53 /topic3.php

(2) Abu Assab, Nour (2014). The Umayyads› Attitude Towards the Christian Sacred Sites in IslamicJerusalem. Journal of IslamicJerusalem Studies 14: 27-76.

(3) د. يوسف النتشة. مقابلة بتاريخ: 05/ 02/ 2020.

الوظيفيّـة، الـذي مرّ على المدينة يتخلّله بعض الممارسـات والتصرُّفات الخارجة عن القانون والأخلاق الرفيعة التي يتحلَّى بها أبناء الديانتيْن، لاسيما أنَّ الغزو الصّليبيّ للمدينة، ومكوثه فيها لنحو تسعين عاماً، ترك آثاراً وندباً لم يكن من السّهل إزالتُها والتخلّصُ منها.

الآن، تعـجّ البلدة القديمة من القدس بآلاف المعالم العمرانيّة والأوقاف والوقفيّات الخيريّة والذّرّية (الإسـلامية والمسـيحيّة)، وعدا المنطقةِ المسوّرةِ للمسجد الأقصى المبارك، التي هي إسلاميّة بحتة، فإنَّ المتجوِّلَ في حارات القدس وشوارعها وأزقّتها يلحظُ حالات التجاور، بـل التلاصق، بـين المعالم الأثريـة والأماكـن الدّينيّة والمؤسَّسـات لِكِلا الديانتـيْن، دون أن يسـتطيع التفريـق بين أبناء الشـعب الواحد، الذيـن لا يختلفون، ولا يتضـادون لا في اللغة ولا في المشـاعر، ولا في نظرتهـم إلى المحتلّ القادم من خلف البحـار، محاولاً التخلص منهما "معـاً"؛ إذ إنَّ إعلانـات الاحتلال عن نيّته هدم المسـجد الأقصى المبارك، لا يعني اسـتقرار الحال لكنيسـة القيامة، ولا لأيَّة كنيسـة مسـيحيّة أخرى، فَنِيرانُ التهويد سوف تلفح وجوه المسلمين والمسيحيين معاً، دون تمييز.

لذلـك، فإنَّ المقدسـيين –مسـلمين ومسـيحيين– يمتلكون تراثـاً وإرثاً متراكـماً من الفعل الحضاري على الأرض، وحياة مشـتركة على مدى خمسـةَ عشرَ قرناً ميلادياً، تجعلهم يقفون صفّـاً واحـداً مُتراصّاً خلـف حقوقهم الشرعيـة والقانونيّـة، في مدينتهم التـي ورثوها عن أنبيائهم وآبائهم وأجدادهم، تُمثِّل العقيدة والحضارة والهويّة.